الورشة التكوينية الموسومة بـ:

الخطاب الحجاجي "الخُطاطة والآليات"

من تنظيم: مخبر التداوليات وتحليل الخطاب، كلية الآداب واللغات

المنعقد بـ: جامعة الوادي، الجزائر في: 11 ماي 2024

.....

عنوان المداخلة:

السلم الحجاجي في قصص الحديث النبوي ذات البعد التربوي

إعـــــــداد:

د. أمينـــــة تجـــــاني

أستاذة بقسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة الوادي

الملخص:

نهدف من خلال هذه الدّراسة إلى الكشف عن حجاجية قصص الحديث النبوي، ودورها في إقناع المتلقي والتّأثير فيه ومن ثمّة تغيير فكره وسلوكه، وذلك من خلال دراسة البنية اللغويّة للقصص، وبالتّحديد السلالم الحجاجيّة باعتبار أنّ اللغة تحمل وظيفة حجاجيّة بصفة جوهريّة بين طيّاتها؛ تتجلى في كلماتها وعباراتها وتراكيبها.

مقدمة:

أصبحنا اليوم في حاجة ماسّة إلى الحجاج، وخاصّة مع التطوّر المستمرّ للحياة اليوميّة وما يطرأ عليه من مستجدّات في كل مرّة، سواء على الصّعيد السياسيّ أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الديني... وذلك في ظل التّعدد والانفتاح الذي آمنت به بعض النّظم السّياسيّة الدّيمقراطيّة وجسّدته على أرض الواقع، فأتاحت الفرصة للجميع للتّعبير عن آرائهم وأفكارهم وإقناع الآخرين بها.

فأصبح النّقاش سمة العصر بين العامّة والخاصّة حول البرامج والمذاهب والاختيارات، وما أذكى هذه النقاشات وزاد حدّتها إلى درجة التّنافس في الإقناع والتّأثير؛ وسائل الإعلام المختلفة، والتي شهدت تطوّرا هائلا مع ثورة الاتّصال السّمعي البصري، حيث أصبح العالم يعيش في عصر سمته التّواصل، وبالأساس التّواصل الحجاجي الذي يسعى فيه الفرد إلى إقناع غيره بوجهة نظره، واستمالته إلى جانبه.

لهذا لم يبق مصطلح الحجاج محصورا في استعمالات خطابيّة ظرفيّة، بل صار بعدا ملازما لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسّبب في ذلك أن كل خطاب حالّ في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأوّليّة والقاعديّة لكل حجاج؛ عناصر الاستدلال والتّدليل.

إشكالية الدراسة:

إن اللغة حجاجيّة بالدّرجة الأولى؛ فكل قول هو في الحقيقة حجاج كما يقول (ديكرو)، لأنّنا لا نتكلّم عبثا وإنّما لقصد ومرمى نسعى إليه. فهي تحمل وظيفة حجاجية في طيّاتها، تتجلى في بنية الأقوال وتسلسلها وتواليها داخل الخطاب بصورة استنتاجية.

بمعنى أنّها لم تعد وسيلة تواصل وإبلاغ، أو جمال وإمتاع، بل أصبح ينظر إليها على أنّها وسيلة تأثير وإقناع، فمن خلالها يؤثّر المتكلم في مخاطَبه ويحصل على قبوله لنتيجة ما، وذلك بتقديمه لسبب يجعل هذه النّتيجة مقبولة، بحيث تتسلسل الأقوال وتتوالى داخل الخطاب بصورة استنتاجيّة فتكون بعضها بمثابة الحجج اللغويّة وبعضها الآخر هو بمثابة النّتائج التي تستنتج منها، لأنّ المرسل لا يتكلّم عبثا وإنّما لقصد ونتيجة يسعى إليها.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال قصصه توسّل اللغة للتّأثير في المتلقي وإقناعه بما يرمي إليه من نتائج، فكانت كلماته هي وسيلته في التّأثير في المستمع لتغيير فكره وسلوكه، باعتبار أنّ اللغة هي الأداة الأولى في تغيير العالم وتحوير السّلوك البشري.

من هذا المنطلق أردنا البحث في هندسة اللغة وبناء الخطاب في القصة النبوية التربوية لأنّ "الوصول إلى سبر الأبنية اللغويّة وما فيها من إمكانات حجاجيّة، والبحث فيما تتكهّن به من علاقات خطابيّة ممكنة وما تمنحه من ترابطات كفيلان ببيان صيغ التّرابط التي تفرضها التّوجيهات المسجّلة في البنية اللغويّة وبناء دلالة الخطاب المثالي أي قواعد الخطاب الدّاخليّة التي تسيّر صيغ ترابطه"[1].

وبناء على ما تقدّم فإن هذه الدّراسة تهدف إلى سبر أغوار قصص النبي صلى الله عليه وسلم في محاولة لاستكناه دلالاتها واستنطاق بنياتها اللغوية بمقاربة حجاجيّة تكشف عن دورها في الإقناع والتّأثير.

أسئلة الدراسة:

نطرح من خلال الدراسة الإشكالية الرئيسة الآتية:

ما مدى حجاجية القصص النبوية ذات البعد التربوي من خلال السلالم الحجاجية؟

وتتفرع عنها تساؤلات جزئية، أهمها:

- ما المقصود بالحجاج والسلالم الحجاجية؟
- أين تكمن حجاجيّة قصص الحديث النبوي؟
- ما مدى تأثير القصة النبوية التربوية في المتلقي وأثرها في تغيير فكره وسلوكه؟

إجراءات الدراسة:

للإجابة عن الإشكاليّة الرئيسة وما اندرج تحتها من تساؤلات فرعية، جاءت محاور الدراسة كالآتي:

المحور الأول: "الحجاج والسلم الحجاجي" ويضم تعريف الحجاج، السلم الحجاجي، وقوانينه.

المحور الثاني: "القصة النبوية التربوية" ويتناول التعريف بالقصة بصورة عامة ثم بالقصة النبوية بشكل خاص، ثم ذكر أهم أنواعها.

المحور الثالث: ""السلالم الحجاجية في القصة النبوية التربوية" وهو محور تطبيقي يُبيّن حجاجية اللغة في قصص الحديث النبوي الشريف من خلال السلالم الحجاجية.

أوّلا: الحجاج والسلم الحجاجي

---

[1] شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، دط، دت، ص362.

تندرج السّلالم الحجاجيّة ضمن نظرية الحجاج اللغوي أو اللساني التي وضعها كل من (أنسكومبر وديكرو)، والتي تهدف إلى الكشف عن الوظيفة الحجاجية للغة انطلاقا من فرضية محورية ألا وهي: "أننا نتكلم عامة بقصد التّأثير". فاللغة تحمل وظيفة حجاجية في طياتها، وبصفة ذاتية وجوهرية تتجلى في بنية الأقوال ذاتها، صوتيا، وصرفيا، وتركيبيا، ودلاليا. فالحجاج موجود في كل خطاب.

1- مفهوم الحجاج

أ- **لغة:** الحجاج مصدرا للحجة وهي الدليل والبرهان، والقصد الذي يكون بها إثبات فكرة ما أو دحضها وإبطالها، ويشير ابن منظور في معجمه لسان العرب إلى الحجاج بقوله: "الحُجَّة هي البرهان وقيل الحُجَّة هي ما دوفع به الخصم ... وحَاجَّهُ مَحَاجَّة وحِجَاجًا نازعه الحجّة ... وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ وحِجَاجٌ، وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا غلبه حجّته وفي الحديث: فحجّ آدم موسى أي غلبه بالحجّة"[1].

وليس بعيدا عن هذا المعنى نجد (الرّازي) يقول: "الحجّ في الأصل: القصد ... والحجّة: البرهان، وحاجّه فحجّه من باب ردّه، أي غلبه بالحجّة، وفي المثل: لجّ فحجّ، فهو رجل مِحْجاج بالكسر أي جدل، والتّحاجّ: التّخاصم. والمِحَجَّة بفتحتين: جادّة الطريق"[2].

إن الحجاج في اللغة -حسب المعجمين السابقين- هو تحاور مع الآخر سواء أكان هناك اختلاف في الرّأي أم لا، ومحاولة إقناعه والتّأثير فيه بالحجّة الدّامغة. فهو يقوم "على أساس التخاطب بين المتكلم والمستمع اللذين يفترض فيهما أن يتحاجّا في أمر يستلزم دليلا أو حجّة له أو عليه"[3].

حوار مع الآخر ومحاولة إقناعه والتأثير فيه بالحجة الدامغة

ب- اصطلاحا:

يعدّ الحجاج مفهوما عائما ويتميّز بالانسيابيّة، حيث نجد تباينا واضحا في تعريفاته بين العلماء وذلك راجع لزاوية النّظر ونوعيّة الخطاب (قانوني، سياسي، أدبي، علمي ...)، فكل واحد قدّم تعريفا حسب منظوره المعرفي ومرجعيّته الفكريّة. ولكن في خضمّ هذا التّعدّد الدّلالي للحجاج واستعمالاته، يمكن تقديم

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، م2، ص 28، مادة (حجج).

[2] محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مادة (ح ج ج)، عني بترتيبه: محمود خاطر بك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة 1981.

[3] رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، ع2، م40، أكتوبر، ديسمبر، 2011، ص 71.

تعريف جامع له؛ ففي المعجم الفلسفي "الحجاج هو جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها"[1].

وحسب (برلمان وتتيكا) هو "جملة الأساليب التي تضطلع في الخطاب بوظيفة حمل المتلقّي على الإقناع بما نعرضه عليه، أو الزّيادة في حجم هذا الإقناع لغاية أساسيّة هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيّئه للقيام بالعمل"[2]. أي هو مجموعة من تقنيات الخطاب التي تقصد استمالة المستمع إلى الفكرة التي تطرح عليه، أو زيادة درجة تلك الاستمالة ما تدفع بالمتلقي إلى القيام بالعمل المطلوب؛ سواء من حيث إنجازه أو الإمساك عنه.

وحسب (أنسكومبر وتتيكا) فالحجاج في اللغة يُعنى بدراسة كيفية اشتغال الأقوال داخل خطاب ما، وذلك برصد تسلسلها وتواليها داخل الخطاب بصورة استنتاجية، فـ "الأقوال تتتابع وترتابط على نحو دقيق فتكون بعضها حججا تدعم وتثبت بعضها الآخر، أي أنّ المتكلم يجعل قولا ما حجّة لقول آخر هو بلغة الحجاج (نتيجة) يروم إقناع المتلقي بها وذلك على نحو صريح واضح أو بشكل ضمني"[3]. فالحجاج في اللغة مجموعة من الأقوال المتتالية يكون بعضها حججا والبعض الآخر نتيجة.

وكمثال على ذلك: إحدى الطالبات تحاور زميلتها في الهاتف، بقولها: إن فلانا يبيع حجابات جميلة وجديدة، ولديه كل المقاسات، وبكل الألوان، وبأثمان غير باهضة، بل بخسة. تقول زميلتها: غدا نذهب ونشتري قبل أن تنفد الكمية.

2- مفهوم السلم الحجاجي:

يعرفه طه عبد الرحمن بأنّه عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبيّة وموفية بالشّرطين التّاليين[4]:

---

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، دط، 1994، ج1، ص 446.

[2] برلمان وتتيكا، مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة، المطابع الجامعية، ليون، فرنسا، 1981، ج1، ص 92. نقلا عن: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر، ص21.

[3] سامية الدريدي، الحجاج في الشعر، ص23.

[4] ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص277.

– كل قول يقع في مرتبة ما من السّلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطّرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

– كل قول كان في السّلّم دليلا على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه". ويمكن أن نرمز له بالشّكل التالي:

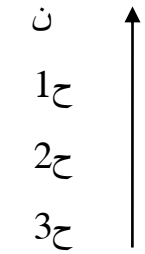

تمثّل ح1 وح2 وح3 حججا متدرّجة بشكل تصاعدي خدمة للنّتيجة المقصودة (ن).

إذًا السلم الحجاجي هو "علاقة تراتبيّة للحجج تحدّد بموجبها مراتب القولات ودرجاتها، باعتبار وجهتها وقوّتها الحجاجيّتين"[1]، مع وجود تلازم بين الحجّة (ح) والنّتيجة (ن) وهذا "التّلازم لا يتحقّق إلا بإضافة الحجّة إلى نتيجتها، والتي قد يكون مصرّحا بها أو مضمرة"[2].

وكمثال على ذلك: الجوّ بارد.

هذا القول يمثل حجّة لنتيجة مضمرة وهي لبس المعطف أو إغلاق الباب...

وعلى هذا الأساس "فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجيّة ما علاقة ترتيبيّة معيّنة، فإنّ هذه الحجج تنتمي إذّاك إلى نفس السّلم الحجاجي، فالسلم الحجاجي هو فئة حجاجيّة موجّهة"[3] تفرض على المخاطَب نمطا معيّنا من النّتائج باعتباره الاتّجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار. والقيمة الحجاجيّة لقول ما هي نوع من الإلزام يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه واستمراره[4].

ولتوضيح ذلك ندرج هذا المثال:

– حصل أحمد على شهادة الليسانس

– حصل أحمد على شهادة الماستر

– حصل أحمد على شهادة الدكتوراه

---

[1] رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي، ص96.

[2] المرجع نفسه، ص93.

[3] O Ducrot, Les échelles argumentatives, Minuit, Paris, 1980, p18.

[4] O Ducrot, Dire et ne pas dire, Hermann, Paris, 1980, p286.

فهذه الجمل تتضمّن حججا تنتمي إلى نفس الفئة الحجاجيّة، وإلى نفس السّلّم الحجاجي أيضا؛ إذ تؤدّي كلّها إلى نتيجة مضمرة تتجلّى في "تفوّق أحمد" أو "مرتبته العلميّة". وعند تمثيل السّلّم الحجاجي ستكون الحجّة الأقوى في أعلى السّلم، وذلك كما يبيّنه الرّسم الآتي:

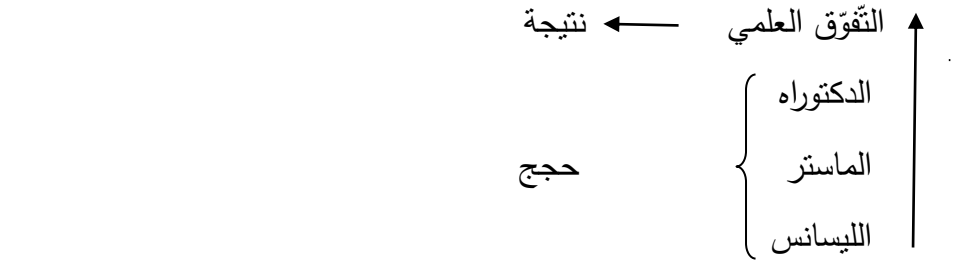

بناء على ما سبق فإنّ المخاطِب الذي يرمي إلى إقناع مخاطَبه بأمر معيّن أو التّأثير فيه، "فإنّه لا محالة يوظّف فئة حجاجيّة؛ تكون بمنزلة دعامة استدلاليّة لغرضه الذي من أجله كانت العمليّة التّخاطبيّة. وهذه الحجج التي يوردها لن تكون على درجة واحدة، بل تختلف وتتفاوت فيما بينها وفق القوّة والضّعف"[1].

3- قوانين السلم الحجاجي:

تتحكّم في السلم الحجاجي ثلاثة قوانين هي: قانون الخفض وقانون القلب وقانون التّبديل.

أ- قانون النّفي:

"إذا كان قول ما (أ) مستخدما من قبل متكلم ما ليخدم نتيجة معيّنة، فإنّ نفيه (أي ~ أ) سيكون حجّة لصالح النّتيجة المضادّة"[2]. وهو يماثل ما يسمّيه (طه عبد الرحمن) قانون التّبديل، ومفاده "أنّه إذا كان القول دليلا على مدلول معيّن، فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله"[3].

وكمثال على ذلك:

- أحمد طالب متفوّق، لقد نال جائزة.
- أحمد ليس طالبا متفوّقا، أحمد لم ينل جائزة.

إنّ قبولنا الحجاج الوارد في المثال الأوّل، يحتّم علينا قبول الحجاج الوارد في المثال الثاني أيضا.

ب- قانون القلب:

---

[1] رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي، ص95.

[2] O. Ducrot, Les échelles argumentatives, p27.

[3] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 278.

ومقتضى هذا القانون "أنّ السّلم الحجاجي للأقوال المنفيّة هو عكس سلّم الأقوال الإثباتيّة. وبعبارة أخرى، إذا كان (أ) أقوى من (أَ) بالقياس إلى النّتيجة (ن)، فإنّ (~ أ) هو أقوى من (~ أَ) بالقياس إلى (لا – ن). ويمكن التّعبير عن هذه الفكرة بصيغة أخرى فنقول: إذا كانت إحدى الحجّتين أقوى من الأخرى في التّدليل على نتيجة معيّنة، فإنّ نقيض الحجّة الثّانية أقوى من نقيض الحجّة الأولى في التّدليل على النّتيجة المضادّة"[1].

ويمكن تمثيلها كالآتي:

ن	لا ~ ن
أَ	~ أَ
أ	~ أ

ويمكن توضيح الأمر أكثر بالمثالين الآتيين:

– حصل أحمد على شهادة الدكتوراه، وحتى شهادة الماستر.

– لم يحصل أحمد على شهادة الماستر، ولم يحصل على شهادة الدّكتوراه.

إنّ حصول أحمد على شهادة الدكتوراه تمثّل الحجّة الأقوى على كفاءته العلميّة من حجّة حصوله على الماستر، في حين أنّ النّقيض؛ عدم حصوله على الماستر تمثّل دليلا أقوى على عدم كفاءته العلميّة من عدم حصوله على الدّكتوراه.

ج– قانون الخفض:

والمقصود به "أنّه إذا صدق القول في مراتب معيّنة من السّلم، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها"[2]. فترتيب الحجج يمكن "أن يعدّل ويتغيّر من لحظة لأخرى بتدخّل عوامل معيّنة، ذلك أنّ إضافة حجّة جديدة إلى مجموعة من الحجج يمكن أن تغيّر من مدلولها. وبالتّالي من قوّتها"[3]. وكمثال على ذلك:

– الجوّ ليس باردا.

في هذا المثال قد يكون الجوّ دافئا أو حارّا، لهذا تستبعد التّأويلات التي ترى أنّ البرد قارس وشديد، وتتجلّى صعوبة صياغة هذه الوقائع في أنّ الخفض الذي ينتج عن النّفي لا يتموقع في السّلم الحجاجي،

[1] O. Ducrot, Les échelles argumentatives, p27.

[2] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص277.

[3] رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي، ص98.

فلا تندرج الأقوال الإثباتيّة من نمط: (الجوّ بارد) والأقوال المنفيّة من نمط: (ليس الجوّ باردا) في الفئة الحجاجيّة نفسها ولا في السّلم الحجاجي نفسه[1].

ثانيا: قصص الحديث النبوي

1- مفهوم القصّة

أ- **لغة:** جاء في مقاييس اللغة لابن فارس: "القاف والصاد: أصل صحيح يدل على تتبّع الشّيء. من ذلك قولهم: قَصَّ الشيءَ يَقُصُّه وقِصَصًا بمعنى تتبّعه لأمر وغاية ينتهي إليها من ذلك التّتبّع... اقتصصت الأثر إذا تتبّعته"[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿ ﴾[3]، أي تتبّعي أثره لتعلمي خبره.

وقد يأتي القصّ "بمعنى البيان، ومنه قوله سبحانه وتعالى في قصّة يوسف -عليه السّلام- مع إخوته: ﴿ ﴾[4] أي: نبيّن لك أحسن البيان، والقاص من يأتي بالقصّة "[5]. وهذا يعني أنّ "أصل القصص عند العرب تتبّع الأثر، فالعليم بالآثار يسير وراء من يريد معرفة خبره، ويتتبّع أثره حتى ينتهي إلى موضعه الذي حل فيه"[6] .

وعليه فالقصّة في اللغة هي الأثر أو الخبر الذي يتّبعه المستمع والمتلقي ليوجّهه في حياته فيسير على هديها ومنوالها ليصل إلى هدفه المنشود.

أمّا في العصر الحديث فحسب المعجم الوسيط "القصّة: الحديث، الخبر، الأثر، الحكاية الطّويلة المستمدّة من الخيال أو الواقع أو منهما معا، والتي تبنى على قواعد معيّنة من الفنّ الأدبي"[7]. وإن كانت تعني الأثر أيضا، إلا أنّ لها شروطا وقواعد لا تخرج عنها.

ب - اصطلاحا: ليس بعيدا عن المعنى اللغوي نجد أنّ القصة في الاصطلاح هي "نسيج سردي، يختزل الخطاب إلى منطق أفعال ووظائف، ملغيا بذلك أزمنة ومظاهر وأنماط القصّة"[8].

---

[1] ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص24.

[2] ابن فارس، مقاييس اللغة: مادة (ق ص ص)، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، م5، ص11.

[3] سورة القصص، الآية 11.

[4] سورة يوسف، الآية 3.

[5] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، 1978، ج2، ص311.

[6] عمر سليمان عبد الله الأشقر، صحيح القصص النبوي، دار النفائس، الأردن، ط7، 2007، ص11.

[7] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص580.

[8] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص80.

وهي أيضا الحكاية النّثريّة الهادفة ذات الحبكة المترابطة، والمستوحاة من الخيال أو الواقع التي تعزّز الجوانب الإيجابية، وتخلو من الخرافات والمعاني السّلبيّة[1]. وهي أيضا "فن أدبي إنساني تتّخذ من النّثر أسلوبا لها، تدور حول أحداث معيّنة يقوم بها أشخاص في زمان ما، ومكان ما في بناء فنّي متكامل هادف نحو بناء الشّخصيّة المتكاملة"[2].

وتعدّ القصّة "من الأنواع الأدبيّة البارعة التي يمكن للقاص بها أن يقرّر المبادئ ويمكّن للأهداف"[3]، من خلال رسم خطوات الحياة الإنسانيّة من كل الجوانب ليتتبّع المتلقي أثرها حتى يصل إلى برّ الأمان. ولهذا فقد صاحبت الأمم من عهد البداوة إلى عهد ذروة الحضارة، فمكانتها ممتازة بين الفنون الأدبيّة لمرونتها، واتّساعها للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبها وخفتها على النّفوس وقد بلغ بها القرآن الكريم ذروة الكمال[4]

وعليه فالقصّة هي حكاية وقعت في زمن ما أو لشخص ما، لا تخلو من عظة أو عبرة يتتبّعها المتلقي ليستفيد منها في حياته.

2- مفهوم القصة النبوية:

إنّ مفهوم القصّة النّبويّة لا يخرج عن مفهوم القصّة كما عرفها العرب وكما جاءت في القرآن الكريم، وهو تتبّع الأحداث الماضية وإبراز جانب العبرة فيها، حيث تتناول أخبار الماضين وأحداث الأوّلين، سواء كانوا من الأنبياء أم من أقوامهم مع التّحديد الزّماني والمكاني[5].

ولكنّها تتفرّد عن غيرها، لكونها "كقصّة الأصل لا تجنح إلى الخيال الشّارد الجموح، ولا للتعمّق المفلسف الغامض، ولا للسّطحيّة الفارغة الجوفاء المغطاة بقشرة خالية من بديع العبارة، وليست هي القصّة التي وضع الغرب لها عشرات القواعد والشّروط، ولكن هي القصّة التي تقوم على سلامة فطرة القاص، وتكفي كل الكفاية في تقرير الغرض، وتروّع كل الرّوعة في تسلسل الأحداث ولباقة الحوار، وتصوير الشّخصيّات، وتتبع فكرتها من أجناس النّفوس الكائنة الحيّة، فلا تعالج أنماطا من عالم المجهول، وإن جنحت إلى عالم غير منظور بَنَتْه على تباشير الحاضر الشّاهد به، فربطت بينهما بسببيّة تمنع الطفرة، وبألفة تأنس بالرّحلة، وهي في ذلك كله وفي غيره الوسيلة المشتهاة للنّفس الطلقة، والأسلوب الرّائع المخدّر

---

[1] ينظر: وليد رفيق العياصرة، التربية الإسلامية واستراتيجياتها العملية، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2010، ص571

[2] محمد عبد الرؤوف، أدب الأطفال وبناء الشّخصيّة (منظور تربوي إسلامي)، دار العلم، دبي، ط2، 1997، ص112.

[3] كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص 459.

[4] ينظر: الأشقر، صحيح القصص النبوي، ص 12.

[5] ينظر: مأمون فريز جرار، خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة للنشر، جدة، السعودية، ط1، 1988، ص113.

للوجدان تجوس معه حكمة الطبيب الرّؤوف في القلب، وتقطع وتصل ليصحو في حلم ورحلة على حقيقة قلب وصحّة واعتقاد"[1].

إذًا القصّة النّبويّة هي القصة التي يحكيها النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه أو عن الأمم السابقة أو المواقف الغيبية التي تندرج تحت باب القصص النبوي، والتي تهدف إلى بناء القيم وترسيخ مبادئ الإسلام في النفوس وصياغة الشخصية المسلمة على نحو متميز وفق المحددات القرآنية، من خلال "مجموعة أحداث مرتّبة ترتيبا سببيّا، تدور حول مواضيع إنسانيّة شتّى، جوهرها تصوير الحياة بما فيها من نماذج بشريّة، وتحليل أحاسيسها ومعرفة نفسيّاتها وتشريحها"[2].

إنّ القصّة النّبويّة ترسم منهجا واضحا، وطريقا سويّا ناجحا لصناعة الإنسان وبنائه وفق المبادئ الإلهيّة للمنهج الرّبّاني المسطّر في القرآن الكريم؛ وذلك للوصول إلى الأهداف الكبرى التي خلق من أجلها الإنسان: الخلافة، العبادة، العمارة. ولهذا لم يذكر النّبي ﷺ شخصيّات نمطيّة اصطناعيّة ذات وجهة محدّدة، بل أبطال قصصه تنتمي إلى الواقع الوجودي بما فيه من خير وشر، وحب وكره، وطمع وحرص..... بل في أغلب الأحيان تضع المتلقي أمام نقيضين ليقارن ويختار الأفضل ليتّبعه كنموذج بشري ناجح يسير على خطاه ويتتبّع أثره حتى ينجح في حياته مثله، ويقود مجتمعه لأنّ النّجاح أوّل معيار للقيادة.

وعليه فالقصّة النّبويّة ترسم خطوات الأمّة القائدة، والمؤمن النّاجح، والمجتمع المثالي المتكافل اجتماعيّا، والمتعاون اقتصاديّا والمتطوّر علميّا. أي الأمّة التي قال فيها تعالى:[3].

3- أشكال القصّة النبوية:

تعدّدت أشكال القصّة وتنوّعت بحسب مضامينها ومقاصدها، وهي وإن كانت تشترك مع الحديث النّبوي في بعض الجوانب، إلا أنّها في عمومها مستقلة عنه؛ لكون مجالها أوسع وأكبر، فلا تنحصر في عصر من العصور، بل تمتد مساراتها ومسافاتها وتتسع مداراتها ومدركاتها فتسع كل ما رواه النبي صلى الله عليه وسلم من قصص عن الأمم الأخرى، والأحداث الغيبية والأخبار المستقبليّة التي تأخذ في عمومها طابع الأسلوب القصصي. وربّما هذا السّبب الذي جعل العلماء والباحثون يصنّفون القصص إلى:

1- قصص وقعت للرّسول ﷺ: كقصّة الإسراء والمعراج، وقصّة شق الصّدر ...

---

[1] كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص 459، 460.

[2] مأمون فريز جرار، خصائص القصّة الإسلامية، ص113.

[3] سورة آل عمران، الآية110.

2- قصص تاريخيّة: كقصّة الغلام وأصحاب الأخدود، وقصص الأنبياء مع أقوامهم...

3- قصص غيبيّة: كقصّة المسؤوليّة والجزاء التي تتعلق بالجنّة والنّار، وقصص يوم القيامة...

4- قصص تمثيليّة: كقصّة أصحاب السّفينة...

5- قصص المستقبل: كقصّة يأجوج ومأجوج والمسيح الدّجّال...

ولكن هذا التّصنيف لا يناسب مقاصد رسول الله ﷺ وغاياته من القصص، فهو ليس مؤرّخا يتحدث عن أخبار الماضين، ويسجّل حياتهم وشؤونها كما يفعل المؤرخون. كما أنّه لا يؤرّخ لنفسه وأمّته من خلال ذكر القصص التي حدثت له. وليس راويا أو قاصّا يروي القصص لمجرّد الإمتاع والتّسلية وقضاء الوقت في الاستماع إليه في زمنه صلى الله عليه وسلم، وقراءتها في أزمان أخرى؛ إذ ليس في ذلك هدف أو غاية يستلهمها القارئ أو المستمع ليهتدي بها إلى سبل السلام وتوصله إلى بر الأمان. وهذا لا يمكن لأنّه ﷺ أعلى شأنا من ذلك لقوله تعالى:[1].

فهو يسعى جاهدا من خلال القصص إلى تحقيق أهداف سامية؛ تتمثّل في تغيير التركيبة العقليّة والنّفسيّة للمتلقين وما يتبعها من تغيّر عملي سلوكي، ولهذا فقصصه جاءت لتعالج الحياة الإنسانيّة من كل جوانبها؛ لأنّها تتشابه رغم اختلاف الزّمان والمكان "فوق ظهر هذه الأرض في استقامتها وانحرافها، وحتى النّماذج البشريّة المنحرف منها والمستقيم نماذج مكرورة، ولذا فإنّ القرآن الكريم والحديث النّبوي يحدّثنا كل منهما أحاديث نجد فيها أنفسنا، أو نجد فيها رجالا من حولنا، فكأنّما النّصوص وهي تروي قصّة فلان تحدّثنا عمّا نعانيه من البلاء، أو ما ننعم به من الرّخاء، أو كأنّما هي تحدّثنا عن الحاكم العادل الذي يعيش بيننا، أو الجبّار الطاغية الذي يصول ويجول مفسدا في الأرض، وقد تحدّثنا عن نماذج إنسانيّة عاديّة، فقد يكون المتحدّث عنه مزارعا صالحا أو تاجرا أمينا صادقا، أو إنسانا رحيما، وقد نرى هذا النّموذج في فلاح نعرفه أو تاجر نتعامل معه أو رجل أصابتنا نفحات من رحمته"[2].

وهذا يعني أنّ هذه القصص تذكر نماذج مختلفة (تاجر، حاكم، عابد، بغي، قاتل ...) لتعالج موضوعات تربويّة واقتصاديّة واجتماعيّة وتعليميّة واقتصاديّة؛ لذا يجب تصنيف القصّة النّبويّة حسب أبعادها التي ترمي إليها، وذلك لاستكشاف المقاصد الحقيقيّة لهذه القصص وتفعيلها في حياتنا اليوميّة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذا التّصنيف هو الأنسب والأصلح لأنّه يتماشى مع الحجاج الذي

---

[1] سورة النجم، الآيتان 03، 04.

[2] الأشقر، صحيح القصص النبوي، ص15.

يتمظهر في كل الخطابات بهدف التّأثير والإقناع ومن ثَمّة التّغيير، وهو ما حققه رسول الله ﷺ في الواقع الوجودي؛ إذ غيّر أمّة من النّقيض إلى النّقيض في فترة وجيزة.

وعليه يمكن تصنيف القصص إلى:

1- القصص ذات البعد التربوي:

وهي التي تُعنى بتربية المسلم تربية روحيّة، وتهذيب النّفس البشريّة وتصفيتها من كل شهواتها ورعوناتها للوصول بها إلى أعلى مقامات الدّين، ألا وهو مقام الإحسان. ومن أمثلة ذلك: قصّة «التّائب»، قصّة «قاتل المائة»، قصة «صوت من السّماء» ...

2- القصص ذات البعد الاجتماعي:

وهي التي تصوّر الحياة الاجتماعيّة بكل أبعادها السّيّئة والحسنة، محاولة تسييرها وتحويرها نحو الأفضل دائما من أجل تكوين مجتمع إسلامي مثالي قادر على قيادة الأمم. على نحو جيل الصّحابة الذي تخرّج على يد المصطفى ﷺ فقاد الأمم ردحا من الزّمن. ومن أمثلة ذلك: قصّة «الغلام أو أصحاب الأخدود»، قصّة «جريج»، قصّة «الكفل»، قصّة «أصحاب الغار» ...

3- القصص ذات البعد الاقتصادي:

وهي التي تعرض النّظام المالي الإسلامي الذي جاء به القرآن الكريم، القادر على تسيير اقتصاد الدّول والمجتمعات على نحو أفضل من النّظم الاقتصاديّة الوضعيّة التي سبّبت أزمات ماليّة لا نهاية لها، والتي لا تزال تعاني من فشلها البشريّة إلى اليوم. نظام مالي إسلامي يضمن الحياة الرّغيدة لكل النّاس من خلال الزّكاة، الصّدقات، تحريم الرّبا والاحتكار والغش والتّدليس في الأثمان وما إلى ذلك. ومن أمثلة ذلك: قصّة «الأجير» و«المقترض» و«صوت سحابة» و «المتصدّق» ...

4- القصص ذات البعد التّعليمي:

وهي التي تحوي علوما شتى تفيد العبد في دينه ودنياه، والعلوم عند الصّوفيّة مدارها على أربعة أشياء: الله والنّفس والدّنيا والشّيطان. وهذه العلوم هي التي تؤدّي إلى المعرفة؛ لأنّ العلم بالله وصفاته وأفعاله يحدّد للمسلم أيُّ طريق يسلك: الخير أم الشّر. والعلم بالدّنيا تعرّف المسلم قوانين الكون وسنن الحياة، ومنها يكتشف أسرار النّجاح في الدّنيا والآخرة. والعلم بالشّيطان يمكن المسلم من معرفة مزالقه التي يريد أن يغوي بها ابن آدم حتى يقع في مستنقع الرّذيلة والخطيئة، فيسقط من عين الله ويحل به غضبه وعقابه الدّنيوي أو الأخروي. ومن أمثلة ذلك: قصّة الدّجال، ويأجوج ومأجوج ...

5 - القصص ذات البعد السّياسي:

وهي التي توجّه الحياة السّياسيّة، وتبيّن العلاقة بين أصحاب الحكم والشّعب، وتبيّن طبيعة السّلطة؛ البعيدة عن التسلط والظلم والقهر، وعن عدم المبالاة والإعراض عن الخلق أيضا، فهي علاقة خدمة، لأنّ رئيس القوم خادمهم، والسّلطان ظل الله في الأرض والنّائب عنه في تسيير شؤون خلقه الظاهرة. ومن أمثلة ذلك: قصّة «الغلام»، قصّة «سارة والملك» ...

وخلاصة القول إنّ الحديث الشّريف امتداد للقرآن الكريم الذي يمثل منهج الأمّة الإسلاميّة ودستورها في الحياة الذي ارتضاه الله –عز وجل– لها، فهو يحوي بين طيّاته نظريّات في السّياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والتربية والتعليم؛ والسّنّة النّبويّة المطهّرة بما تحويه من أحاديث وقصص جاءت مترجمة لهذا المنهج عمليّا وسلوكيّا على أرض الواقع، من خلال ذكر نماذج منوّعة من البشر حاولت الإصلاح في الأرض، كل حسب عمله وتوجّهه والجانب الذي أصلح فيه، وعند جمعها كلها واستخلاص مقاصدها التي ترمي إليها نجد أنفسنا أمام برنامج إصلاحي واعد يمسّ كل مناحي حياة الإنسان؛ التّربويّة والاقتصاديّة والتّعليميّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، يغنينا عن كل الدّساتير الوضعيّة والبرامج الغربيّة في الإصلاح.

وعليه فهذه القصص تسعى إلى التّأثير في المتلقي وإقناعه بما جاءت به من أفكار وخطط وبرامج من أجل تغيير واقعه إلى الأحسن بما يرضيه دنيا ويرضي عنه مولاه في الأولى والآخرة، وهذا هو المسعى الحقيقي للحجاج؛ تغيير المتلقّي بالحوار الفعّال والمتبادل.

ثالثا: السلالم الحجاجيّة في القصة النبوية التربوية

إنّ اللغة ليست أداة للتّعبير عن المشاعر والأحاسيس، وعن الحاجات الخارجيّة فحسب، بل لها وظيفة تتجاوز "كونها وسيلة تواصل إلى وسيلة تأثير في العالم والسّلوك، ويصير الكلام ذا قوّة بلاغيّة كامنة فيه تظهر من خلال الآثار والنّتائج المترتّبة"[1]. فمن خلال اللغة نؤثّر في المتلقي، ونغيّر فكره وسلوكه، وبالتالي نغيّر العالم.

وهذا يعني أنّ "الحديث عن اللغة هو حديث عمّا يملكه الإنسان من تقنيات وأساليب قد تحبّب فيه الآخر، فينجذب إليه بسهولة كبيرة انجذابا يسهل إقناعه، أو قد ينفّره منه بواسطتها فينقلب عليه، ولذلك

[1] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص94.

فاللغة هاهنا هي فن ومهارة، إنّها كما قال (فتجنشتاين) لعبة عجينيّة، الكل يشكلها ويبني حججه بها بحسب رغباته وأهدافه المرسومة سلفا"[1].

إنّ مفاهيم الحجّة والنّتيجة في السلّم الحجاجي اقتصرت في البداية على الأقوال فقط، وهذا ما أكّد عليه (ديكرو) في كتابه (السّلّميّات الحجاجيّة)، إلا أنّها في أعماله الأخيرة تعدّت ذلك فأصبحت الحجّة "عبارة عن عنصر دلالي يقدّمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، والحجّة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهدا طبيعيّا أو سلوكا غير لفظي إلى غير ذلك"[2].

وقصص الحديث النبوي لا تخلو من السّلالم الحجاجية، فهي حاضرة بنسب متفاوتة، وقد وظّفها النبي صلى الله عليه وسلم "لفرض نسق من المحاججة يهدف به إلى توجيه مشارِكِه عمليّة التّلفّظ إلى دائرة معيّنة من الإقناع قصد الحصول على مقاصده أو تبليغ مبتغاه من الخطاب"[3]. ولتوضيح الأمر أكثر سندرج بعض القصص النبوية، ونبيّن السلالم الحجاجيّة المدرجة فيها.

قصّة «الرّجل الذي زار أخا له» والتي جاء فيها: "... **أريد أخا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أنّي أحببته في الله عز وجل. قال: فإنّي رسول الله إليك، بأنّ الله قد أحبّك كما أحببته فيه**"[4]. يمكن تمثيل السلم الحجاجي كالآتي:

أحبّك الله تعالى ..... ن

أحببته في الله ح1

ليس له من نعمة عليّ ح2

أريد أخا لي ح3

يورد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه القصّة حججا متساندة لتخدم نتيجة واحدة؛ ألا وهي حب الله عز وجل للعبد، "فعندما ينتمي معنى جملتين أو أكثر إلى الحقل الاستدلالي الحجاجي نفسه يعني ذلك أنّهما يسعيان إلى نتيجة واحدة"[5]، وحينها تسير الحجج في اتّجاه حجاجي واحد ولكن تتفاضل فيما بينها قوّة وضعفا فيختار المتكلّم "الدّليل الأنسب، وفي هذه الحالة تتعيّن معنا القوّة الاستدلاليّة المعيّنة"[6].

---

[1] عبد الجبار أبو بكر، الحجاج الفلسفي وإشكالية المشترك اللفظي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص298.

[2] أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، ص 58.

[3] خليفة الميساوي، الوصائل الحجاجية في المقاربات اللسانية الغربية، كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص501.

[4] مسلم، صحيح مسلم، ج2، كتاب البر والصلة والآداب، ص 519 (رقم الحديث 2567).

[5] رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي، ص97.

[6] المرجع نفسه، ص97.

فإذا تأمّلنا السّلم الحجاجي نجد أنّ الحجّة الأقوى فيه هي: محبّة الرّجل لأخيه في الله تعالى دون أيّ غرض آخر – علاقة قرابة، مصاهرة، تجارة، ردّ الجميل – هي إذن محبّة خالصة لله وحده. وقد رتّبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى درجات السّلم لأنّ المحبّة تمثّل قوّة روحيّة حقيقيّة تتحوّل إلى ترجمة سلوكيّة في المجتمع فتفرض قيم التّواضع واللين والإيثار والتّعاون والأخوّة ...

وعليه فالنّبي صلى الله عليه وسلم يهدف إلى إقناع المتلقي بها ودفعه للقيام بها حتى يخلق "فردا فعّالا وإيجابيّا يتميّز سلوكه بالصّبغة الأخلاقيّة المحمودة والمطلوبة اجتماعيّا"[1]، هذا من جهة ومن جهة أخرى للظّفر بالنّتيجة الخياليّة التي تتعدّى الوصف؛ حبّ الله تعالى للعبد وما ينجم عنه من هبات وعطايا لقوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: بِأَنْ طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلا"[2].

وقوله أيضا: "إنّ من عباد الله لَأُناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله. قالوا: يا رسول الله فخبّرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنّ وجوههم لنور، وإنّهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس"[3]، وقرأ: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (يونس، 62).

قصّة «الأبرص والأقرع والأعمى» والتي جاء فيها: "...**فإنّما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك**"[4].

في هذه القصّة نلمح سلّما حجاجيّا تقابليّا متولّدا عن التّعارض الحجاجي الموجود بين الأبرص والأقرع من جهة، وبين الأعمى من جهة ثانية. ففي السلم الحجاجي قد تكون الحجج الواردة في الملفوظ لا تتّجه لإسناد نفس النّتيجة وإنّما تساند كل حجّة نتيجة معارضة للنّتيجة التي تساندها الحجّة الأخرى.

ولهذا لا يمكن وضع الحجج في مجموعة تدليليّة – فئة حجاجيّة – واحدة بل في فئتين حجاجيّتين حيث تحدّد كل فئة بنتيجتها المشتركة. ويمكن تمثيل السّلّم الحجاجي للقصّة كالآتي:

صُيّر إلى ما كان عليه ..... **ن** ← بقي على حاله ..... **ن**

إنّ الحقوق كثيرة ← خذ ما شئت

[1] معتوق جمال وأوسرير محمد، الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الانحرافي (التربية الصوفية نموذجا)، دفاتر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة، ص151.

[2] النووي، رياض الصالحين، ص108.

[3] المرجع نفسه، ص 112.

[4] البخاري، الصحيح، ج2، كتاب أحاديث الأنبياء، ص 372 (رقم الحديث 3464).

ورثته كابر لكابر	**حجج**	أغناني الله	**حجج**
أعطي المال		أعطي المال	
أُعْطي اللون والجلد الحسن		أعطي البصر	

يورد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه القصّة حجاجا متعارضا لمعرفته بالخلق؛ فهم صنفين: شاكر وناكر، حامد وجاحد. ومهما اختلف الزّمان وتغيّر المكان لن يخرجوا عن هذين الصّنفين. لهذا حدّد الفئة الحجاجيّة في العلاقة الحجاجيّة الأولى بنتيجتها (سُخْط الله عز وجل وزوال النّعمة)، وفي العلاقة الحجاجيّة الثانية بنتيجتها أيضا (رضى الله تعالى ودوام النّعمة).

وذكر النّتيجتين المتعارضتين عن قصد حتى يمنح المتلقي حرّيّة الاختيار ولا يفرض عليه النّتيجة فرضا لأنّ الحجاج "معقوليّة وحريّة، وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة ومن أجل حصول التّسليم برأي الآخر بعيدا عن الاعتباطيّة واللامعقول ... وبعيدا عن الإلزام والاضطرار... الحجاج عكس العنف بكل مظاهره"[1].

ترك النّبي صلى الله عليه وسلم للمخاطَب حرّيّة اختيار السّبيل الذي سيسلكه في حياته، وبناء على اختياره سيتحمّل النّتائج المترتّبة عليه؛ الجحود وما ينتج عنه من سخط الله تعالى وزوال نعمه الظاهرة والباطنة، الحسّيّة والمعنويّة، الدّنيويّة والأخرويّة (الصّحة والمال والبنين ...). الحمد والشّكر وما ينجم عنه من رضى الله تعالى وزيادة في النّعم وبركة في الرّزق ومنح وعطايا في الدّنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾[2]. والعاقل يختار النّتيجة الإيجابيّة ويبـدأ العمل مباشرة لتحصيلها، وهذا هو مراد النّبي صلى الله عليه وسلم دفـع المسلمين لشكر الله –عز وجل– وحمده على كل النّعم.

قصّة «يطلب أن يحرق» التي جاء فيها: "**إنّ رجلا حضره الموت فلمّا يئس من الحياة أوصى... فجمعه الله فقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له**"[3].

قصّة «العبد يصيب الذّنب فيستغفر» والتي جاء فيها: "**إنّ عبدا أصاب ذنبا وربّما قال: أذنب، فقال: ربّ أذنبت، وربّما قال: أصبت فاغفر لي، فقال ربّه: أعلم عبدي أنّ له ربّا يغفر الذّنب ويأخذ به، غفرت لعبدي ثمّ مكث ما شاء الله، ثمّ أصاب ذنبا أو أذنب ذنبا فقال: ربّ أذنبت أو أصبت آخر فاغفره، فقال: أعلم عبدي أنّ له ربّا يغفر الذّنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثمّ مكث ما شاء الله ثمّ أذنب ذنبا وربّما**

---

[1] عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص 298.

[2] سورة إبراهيم، الآية 07.

[3] البخاري، صحيح البخاري، ج2، كتاب أحاديث الأنبياء، ص370 (رقم الحديث 3452).

قال: أصاب ذنبا، قال: ربّ أصبت أو أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أنّ له ربّا يغفر الذّنب ويأخذ به <u>غفرت لعبدي ثلاثا فليعمل ما شاء</u>"[1].

قصة «الكفل» التي جاء فيها: "**كان الكفل لا يتورع عن ذنب عمله ...فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه: <u>إنّ الله قد غفر للكفل</u>**"[2]

قصّة «مومسة وكلب» التي يقول فيها صلى الله عليه وسلم: "**<u>غُفر لامرأة مومسة</u> ... فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك**"[3]. وقصّة «رجل وكلب» التي جاء فيها: "**بينا رجل يمشي فاشتدّ عليه العطش ... فسقى الكلب، <u>فشكر الله له فغفر له</u> ...**"[4].

نلاحظ أنّ هذه القصص الخمسة تنتمي إلى فئة حجاجيّة واحدة وذلك لوجود علاقة تربط بين عناصرها وتكمن هذه العلاقة في دعم نتيجة واحدة مشتركة؛ المغفرة (غُفر له). ولو تمعنّا النّظر أكثر سنكتشف أنّ عناصرها وإن كانت تتوحّد في الانتماء إلى الفئة الحجاجيّة نفسها، إلا أنّها تتمايز في مظهر آخر، وهو قوّة حجّة كل قصّة في إسناد هذه النّتيجة الواحدة ويمكن تمثيل السلم الحجاجي لهذه الفئة كالآتي:

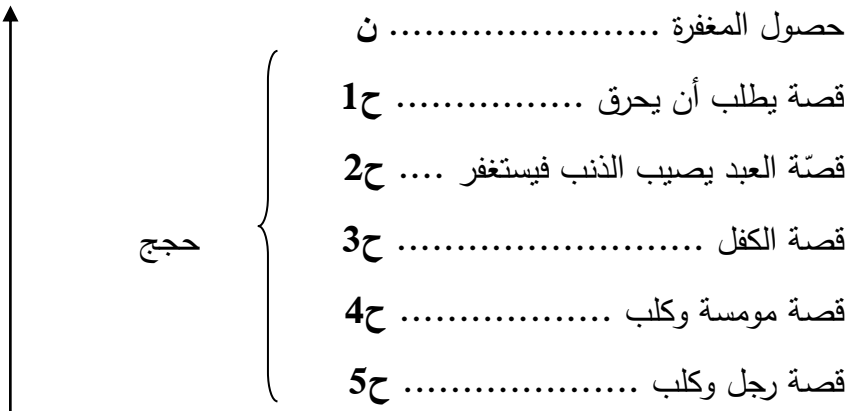

إنّ ترتيب القصص على هذا النّحو من اجتهاد الباحثة لأنّه ليس بين أيدينا أيّ دليل على كون هذه القصّة أو تلك قد رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأولى، فكتب الصّحاح التي اعتمدناها لا تذكر التّرتيب الزّمني للقصص ولا حتى المناسبة أو السّبب الذي ذكرت لأجله القصّة إلا نادرا، فالقصص مبثوثة في الكتب ومدرجة ضمن أبوابها، فلم يدرج لها حتى بابا خاصّا بها رتّبت فيه حسب الأولويّة.

---

[1] مسلم، الصحيح، ج2، كتاب التوبة، ص 598 (رقم الحديث 2758).

[2] أحمد، المسند، ج6، ص 334، 336.

[3] البخاري، الصحيح، ج2، كتاب بدء الخلق، ص 329 (رقم الحديث 3321).

[4] المصدر نفسه، ج2، كتاب المساقاة، ص 83 (رقم الحديث 2363).

وهذا ما جعلنا نتبنّى مبدأ القوّة الحجاجيّة بما أنّنا ندرس الحجاج في قصص الحديث النّبوي، لأنّ "الحجج لا تتساوى ولكنّها تترتّب في درجات قوّة وضعفا، ومأتى هذا التّرتيب هو أنّ الظّواهر الحجاجيّة تتطلّب دوما وجود طرف آخر تقيم معه علاقة استلزام"[1]. ومقتضى هذا المبدأ أنّ قيمة الملفوظ تتحدّد من خلال العلاقة التي يقيمها مع طبقة أخرى من الملفوظات التي تشترك معه في الانتماء إلى السلّم الحجاجي نفسه، حيث يتضمّن كل ملفوظ خاصّيّة تجعله يحتل رتبة معيّنة من هذا السّلّم[2].

وعليه فالقصص موجودة ضمن مجموعة من الوحدات التي تستعمل لوصف الفعل الذي يستلزم النّتيجة (حصول المغفرة)، وهذه الأفعال بالتّرتيب؛ الخشية والخوف، التّوبة والرّحمة...

إنّ قصّة «يطلب أن يحرق» في أعلى السّلم الحجاجي لأنّها الحجّة الأقوى، فحصول اليائس من الحياة على المغفرة بالرّغم من أنّه لم يقدّم شيئا لآخرته بتاتا، ما عدا الخوف من الله تعالى وهو على فراش الموت فطلب من بنيه الحرق بعد الموت. فهو لم يفعل خيرا ولم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر، ومع ذلك غفر له لخَشْيَةٍ امتلكته وهو في سكرات الموت.

من المسلّم به أن قبول هذه الحجّة يستلزم قبول كل ما ورد تحتها من حجج، فإذا كان الذي لم يقدّم شيئا لآخرته سوى الخوف من الله قد غفر له، فما بالك بالذي يذنب ثمّ يستغفر ويتوب فهو أولى بالمغفرة، والأوْلى منه الذي تاب ولم يكرّر الذّنب (الكفل)، والأوْلى منه الذي أذنب ومع ذلك قام بفعل الخير (المومسة)، والأوْلى منهم جميعا الذي لم يذنب وقام بفعل الخير (الرّجل).

وعليه يمكن تمثيل السلم الجزئي لكل قصّة من الفئة الحجاجيّة السّالفة الذّكر كالآتي:

قصّة «يطلب أن يحرق»:

النّتيجة: الحصول على المغفرة

الحجّة: الخوف (وأوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي ...)

قصّة «رجل يصيب الذنب ويستغفر»:

النّتيجة: الحصول على المغفرة

الحجّة: التّوبة والاستغفار (ربّي أذنبت فاغفر لي)

قصّة «الكفل»:

النّتيجة: الحصول على المغفرة

[1] شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص 364.

[2] ابتسام بن خراف، الحجاج في الخطاب السياسي، ص 156.

الحجّة: التّوبة (والله لا أعصيه بعد اليوم أبدا)

قصّة «مومسة وكلب»:

النّتيجة: الحصول على المغفرة

الحجّة : رحمة الحيوان (فنزعت له من الماء)

قصّة «رجل وكلب»:

النّتيجة: الحصول على المغفرة

الحجّة: الرّحمة (فسقى الكلب)

إنّ المتأمّل لهذه السّلالم الحجاجيّة الجزئيّة التي تخدم نفس النّتيجة (مغفرة الله تعالى) يتبيّن له أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد إلى ذكرها بهذا النّمط عن وعي وقصد تام، وذلك حتى يدفع المتلقّين إلى تبنّي هذه الأفعال وممارستها في حياتهم اليوميّة، هذا من جانب ومن جانب آخر ليغريهم برحمة الله الواسعة وفضله العظيم، لمعرفته بطبائعهم وأصنافهم؛ فمنهم العاصي والمذنب وفاعل الخير... وذلك حتى لا ييأسوا من رحمة الله تعالى ولا يقنطوا أبدا لقوله تعالى: ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾[1].

فقصّة «العبد يصيب الذّنب فيستغفر» تدفع المتلقي للتّوبة على الفور وتبيّن له الطّريق السّهل لذلك؛ مداومة الاستغفار لأنّ العبد غير معصوم من الخطأ ولكن خير الخطّائين التّوابون، وهذا ما جعل الله تعالى يغفر لعبده على الدّوام بل زيد عن ذلك بأن قيل له: (غفرت لعبدي ثلاثا فليعمل ما شاء) لأنّ "التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له"[2] كما يقول ﷺ. وإنْ كانت القصّة السّابقة تحثّ المتلقّي على التّوبة للحصول على المغفرة والجنّة، إلا أنّها في قصّة «الكفل» تكشف عن التّرجمة الفعليّة للتّوبة في الواقع، فالكفل بعد توبته بقوله: (والله لا أعصيه بعد اليوم أبدا) سمح للمرأة بالذّهاب وأخذ الأموال دون أن يلمسها.

فالتّوبة قوّة روحيّة واجتماعيّة في الوقت نفسه "تعمل على إعادة تنظيم عمليّة التّفاعل الاجتماعي وإعادة نسج شبكة العلاقات الاجتماعيّة قصد ضمان سيادة السّلوك الاجتماعي السّوي، وذلك من خلال إرجاع الحقوق إلى أصحابها الحقيقيّين الأمر الذي يتيح انتشار التّضامن والتّكافل والوحدة الاجتماعيّة أي

[1] سورة آل عمران، الآية 135.

[2] عبد الرحمن بن عمر الشيباني، تمييز الطيب من الخبيث، ص 96.

أنّ التّوبة تساعد على تفعيل التّفاعل الاجتماعي الإيجابي"[1]. وهذا هو المقصد الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتحوّل الأخلاق الرّوحيّة إلى أفعال حقيقيّة ملموسة في الواقع.

وبناء على ما سبق يمكن تشكيل سلّم حجاجي خاص بالقصّة التّربويّة يجمع كل قصصها بشكل تدريجي، فيكون كالآتي:

النّتيجة: بناء الجانب الرّوحي للعبد المسلم

↑ قصص التّوبة
قصص الرّحمة
قصص الخوف والخشية } حجج
قصص الإخلاص
قصص المحبّة

إنّ هذا السّلّم الحجاجي الخاص بالقصص التّربويّة يبيّن لنا مسعى النّبي صلى الله عليه وسلم وقصده من الحجاج، فهو يهدف إلى إقناع المتلقي في كل زمان ومكان بتزكية النّفس وتهذيبها وذلك باتّصافها بمكارم الأخلاق – الرّحمة والتّوبة والخشية والخوف والإخلاص والمحبّة...– في خطوة أولى إلى بناء الجانب الرّوحي للعبد باعتبار أنّ الرّوح الإنسانيّة هي المحطّة الأولى والأساسيّة في مسار التّزكية والارتقاء، يقول تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ (الجمعة، 02).

ومن ثمّة دفعه إلى تفعيلها في البناء الاجتماعي بجميع أنظمته الاقتصاديّة والسّياسيّة والثّقافيّة، لأنّه بفقدانها "يفقد الأفراد والمؤسّسات القيم والمعايير الموحّدة التي تصنع توجّهاتهم السّلوكيّة العامّة والمشتركة، ليقع المجتمع بعد ذلك في فوضى القيم الشّخصيّة المصلحيّة المتناحرة ويصنع الانحراف والإجرام مبرّرات وجوده الاجتماعي"[2].

الخلاصة:

في نهاية هذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

– إن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة والبراهين من أجل إثبات فكرة ما أو دحضها، كما أنه ترتيب الحجج بطريقة منطقية تسهم في إقناع المتلقي وإذعان الخصم.

---

[1] معتوق جمال وأوسرير محمد، الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الانحرافي، ص147.

[2] المرجع نفسه، ص 138.

– يمثل السلم الحجاجي علاقة ترتيبيّة للحجج، بمعنى ترتيب أجزاء القول بشكل منطقي يسهم في إقناع المتلقي.

– إنّ السّلالم الحجاجيّة في قصص الحديث النبوي تكشف عن سعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى إقناع المتلقي والتّأثير فيه.

– سلك النبي صلى الله عليه وسلم في كل قصة من قصصه مسلكا حجاجيّا مبنيّا على الأقوال، لإقناع المتلقي في كل مرّة بالنّتيجة المبتغاة، ودفعه إلى تحويلها إلى فعل، وهذا هو صلب فعل الحجاج؛ الإقناع الفكري ومن ثَمّ التّأثير العملي.

إنّ لغة القصة النبوية التربوية حجاجيّة؛ إذ تجلّت في أقوالها المتسلسلة داخل الخطاب، إذ رتّب النبي صلى الله عليه وسلم حججه بحسب قوّتها، فجعل الحجّة الأقوى في أعلى السّلم حتى تحقّق الإقناع، وذلك لما تتمتّع به من قوّة تدعم دعواه وما يرمي إليه.

إنّ السّلالم الحجاجيّة في قصص النبي صلى الله عليه وسلم رصدت لنا القول الحجّة والقول النّتيجة، وبالتالي كشفت لنا عن الهدف المنشود من كل قصة، وسبل الإقناع التي مارسها النبي صلى الله عليه وسلم لتحقيق التّأثير والتّغيير.

قائمة المصادر والمراجع: